قراءة جديدة لمفهوم الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم من خلال علماء العربية

د/ عبد العزيز شويط

جامعة جيجل

مقدمة

بادئ ذي بدء – كما يقولون – أنا لست من الرافضين لمسألة كون القرآن الكريم كتاب هداية بالإضافة إلى كونه كتاب علم ، و لست في الحقيقة لا حسب المنهج العلمي و لا حسب الهوى و الميل المذهبي لأن أرفض هذه المسألة على الرغم من خطورة هذه المسألة و أن الرد عليها من الأهمية بمكان ، و لكن الذي أردت أن أنبه إليه هو مسألة مبنية على هذه المسألة الأولى و هو الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ما دمت معتبرا كتاب الله كتاب علم و كتاب هداية ، و من ثمة فهو كتاب معجز .

ومثلما يركز العلماء على أهمية هذا العلم و هو علم الإعجاز من مثل قول الزركشي في البرهان:((و هو علم جليل ، عظيم القدر ، لأن نبوة النبي صلى الله عليه و سلم معجزتها الباقية القرآن ، و هو يوجب الاهتمام بمعرفة الإعجاز))[1]. على الأقل تمييزا للكلام الرباني عن الكلام البشري ووضعه في مقام يلائم المصدر الذي صدر عنه من حيث معاني العلو و السموو الشرف و الأفضلية المطلقة في مفهوم القرآن و ماهيته أو حده إذ أنه كلام الله المعجز المنزل على النبي محمد من قبل جبريل ... إلخ .

ففي تحديد المصدر يكمن مسوغ الإعجاز و هو أهل لذلك بحسب المصدر الذي صدر عنه و هو الذات العلية تبارك و تعالى .

إن السؤال الذي يطرح نفسه كهمّ معرفي بعد الإقرار بمسألة إعجازه العلمي وكونه كتاب علم إلى جانب كونه كتاب هداية كما قد سلف هو : ما هو العلم الرئيس الذي حقق

نى الإعجاز لكتاب الله ما دامت العلوم كثيرة و متنوعة المجالات المعرفية في تراوحها بين التنظير و التطبيق ؟

الحق أنني حيال هذه المسألة بالذات لم أكن متعصبا و لن أكون كذلك إذا جنحت جانب العلم الرئيس المتجانس مع مادة القرآن الكريم و شرط تحقيق ماهيته و ما صدقه باللفظ و المعنى ، ذلك أن القرآن الكريم إذا ترجم إلى لغات العالم غير العربية و هي لغته الأصلية ،ساعتها سيكون النص المتحصل عليه فاقدا للإعجاز بالنسبة للقصد الإعجازي الذي أعده رئيسا و هو الإعجاز اللغوي البياني الفني ، النصي و الذي يدل عليه النظم ، مع ملاحظة مكمنها أن القرآن معجز في علومه الأخرى غير العلوم اللغوية ، بلغة العرب أو بغيرها ، مثلما سنرى في مذاهب القوم في وجوه الإعجاز .

لعل المضطلع على عنوان هذه المداخلة يلاحظ أنني جعلت الإعجاز النصي في النظم على رأي الباقلاني أو الرماني أو الخطابي أو حتى الجاحظ من المعتزلة هو الأساس و هو الرئيس بكل ما يمثله هذا الإعجاز النصي في حلته العربية المنزل بها من تعدد للعلوم من نحو و صرف و بلاغة و موسيقى و فقه لغة و غيرها من علوم اللغة العربية ، أقول جعلته مفتوحا على باقي الأصناف الإعجازية العلمية الأخرى .

إن الزركشي مثلا و هو يعدد أوجه الإعجاز في القرآن حسب مذاهب القوم على اختلاف مذاهبهم يذكر لنا إلى جانب الصرفة للعرب بأن يأتوا بمثله و التأليف الخاص به و اعتدال المفردات و التراكيب و الأوزان فيه و تطابق شرف المعنى مع شرف اللفظ و الإخبار عن الغيوب المستقبلة و الإخبار عن الأمم الماضية حكاية من حضرها و شاهدها و إخباره عما تخفي الصدور و الضمائر لدى الناس في وقت نزوله أقول يذكر ما جعله كأمر سادس و هو ما نذهب إليه هاهنا ، و أعني به التحدي بالنظم و فصاحة اللفظ و صحة المعاني. و هو لا يخرج عن منطق اللغة و البيان و البلاغة . التي تدل عليها علوم اللغة العربية و هو الأمر دارت حوله الوجوه المتبقية التي زادها الزركشي نقلا عن علماء الأمة و اجتهاداتهم

المتعددة في مسألة وجوه الإعجاز من الوجه السادس إلى الوجه الثاني عشر بحسب ذكر الزركشي لها [2]. و هي متعلقة كلها بالنظم و المادة الجنيسة لمادة تكوين القرآن الكريم و هي اللغة و بيانها و بلاغتها أو ما اصطلح عليه بنظمها .

سوف لن أتتبع المعجم العربي في تفسيره لكلمة الإعجاز لأن معناها الذي تتفق عليه هو التحدي ، و لا أتتبع أيضا مصطلح الإعجاز و معناه في كتب القوم و منهم الباقلاني في إعجاز القرآن و الجرجاني في دلائل الإعجاز و الزركشي في البرهان في علوم القرآن و السيوطي في الإتقان و لا حتى الرافعي في إعجاز القرآن و البلاغة النبوية ، غير إنني و أنا أتتبع مفسري القرآن الكريم – و لست أدري أذلك من منطلق عدم التطور الحاصل في العلوم التطبيقية غير اللغوية أم راجع إلى شيء آخر – و جدت جميع المفسرين يتناولون مسألة الإعجاز بالقصد المتعلق بالإعجاز البياني البلاغي الذي ذكره الزركشي من الوجه السادس إلى الوجه الثاني عشر ، و سأختار نموذجا للمفسرين هو الإمام البغوي الذي يقول في تفسير آيات التحدي و الإعجاز من سورة البقرة :

(({ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ } أي { وإن } نتم في شك، لأن الله تعالى علم أنهم شاكون { مِمَّا نَزَّلْنَا } يعني القرآن { عَلَى عَبْدِنَا } محمد { فَأْتُوا } أمر تعجيز { بِسُورَةٍ } والسورة قطعة من القرآن معلومة الأول والآخر من أسأرت أي أفضلت، حذفت الهمزة، وقيل: السورة اسم للمنزلة الرفيعة 8/أ ومنه سور البناء لارتفاعه سميت سورة لأن القارئ ينال بقراءتها منزلة رفيعة حتى يستكمل المنازل باستكماله سور القرآن { مِنْ مِثْلِهِ } أي مثل القرآن "ومن" صلة، كقوله تعالى { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ }(30–النور) وقيل: الهاء في مثله راجعة إلى محمد صلى الله عليه وسلم يعني: من مثل محمد صلى الله عليه وسلم أمي لا يحسن الخط والكتابة [قال محمود هاهنا من مثله دون سائر السور، لأن من للتبعيض وهذه السورة أول القرآن بعد الفاتحة فأدخل من ليعلم أن التحدي واقع على جميع سور القرآن، ولو أدخل من في سائر السور كان التحدي واقعا على جميع سور القرآن، ولو أدخل في سائر

السور كان التحدي واقعا على بعض السور] { وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ } أي واستعينوا بآلهتكم التي تعبدونها { مِنْ دُونِ اللَّهِ } وقال مجاهد: ناسا يشهدون لكم { إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } أن محمدا صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه فلما تحداهم عجزوا

فقال { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا } فيما مضى { وَلَنْ تَفْعَلُوا } أبدا فيما بقي. وإنما قال ذلك لبيان الإعجاز وأن القرآن كان معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم حيث عجزوا عن الإتيان بمثله.))[3] و الأمر هنا يتعلق بالآيتين 22 ، 23 من سورة البقرة .

على أن هذه الآيات ليست وحدها التي تحدثت عن الإعجاز القرآني الذي يذهب علماء البلاغة و المفسرون إلى أنه الإعجاز اللغوي البياني . النص الآخر أخذنا تفسيره من الإمام البيضاوي و هو قوله :

(({ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (13) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) }[4].

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ } بل يقولون اختلقه، {قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ } . فإن قيل: قد قال في سورة يونس: " فأتوا بسورة مثله " ، وقد عجزوا عنه فكيف قال: { فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ } فهو كرجل يقول لآخر: أعطني درهما فيعجز، فيقول: أعطني عشرة؟. الجواب: قد قيل سورة هود نزلت أولا.

وأنكر المبرد هذا، وقال: بل نزلت سورة يونس أولا وقال: معنى قوله في سورة يونس: "فأتوا بسورة مثله"، أي: مثله في الخبر عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد، [فعجزوا فقال لهم في هود: إن عجزتم عن الإتيان بسورة مثله في الأخبار والأحكام والوعد والوعيد] فأتوا بعشر سور مثله من غير خبر ولا وعد ولا وعيد، وإنما هي مجرد البلاغة، { وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ } واستعينوا بمن استطعتم، { مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } .

﴿ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ يا أصحاب محمد. وقيل: لفظه جمع والمراد به الرسول صلى الله عليه وسلم وحده. ﴿ فَاعْلَمُوا ﴾ قيل: هذا خطاب مع المؤمنين. وقيل: مع المشركين، ﴿ أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ يعني: القرآن. وقيل: أنزله وفيه علمه، ﴿ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلا هُوَ ﴾ أي: فاعلموا أن لا إله إلا هو، ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ لفظه استفهام ومعناه أمر، أي: أسلموا.))[5] و إنما نقلنا هذا النص من تفسير البغوي للتأكيد على أن الإعجاز الذي عناه المفسرون للقرآن الكريم هو الإعجاز اللغوي و ما يتبع ذلك من بيان و بلاغة في النظم وفصاحة في اللفظ وغيرها من المتعلقات بالعلوم اللغوية العربية .

النص الثاني الذي أخذناه نقلناه عن الإمام البيضاوي في مسألة الإعجاز اللغوي المتعلق بالحروف المقطعة و ورودها في أوائل أو فواتح السور ، يجيب البيضاوي عمن يسأل : لماذا وردت مركزا على التحدي و الإعجاز ؟ فيقول : ((إيقاظا لمن تحدى بالقرآن وتنبيها على أن أصل المتلو عليهم كلام منظوم مما ينظمون منه كلامهم فلو كان من عند غير الله لما عجزوا عن آخرهم مع تظاهرهم وقوة فصاحتهم عن الإتيان بما يدانيه وليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلا بنوع من الإعجاز فإن النطق بأسماء الحروف مختص بمن خط ودرس فأما من الأمي الذي لم يخالط الكتاب فمستبعد مستغرب خارق للعادة كالكتابة والتلاوة سيما وقد راعى في ذلك ما يعجز عنه الأديب الأريب الفائق في فنه وهو أنه أورد في هذه الفواتح أربعة عشر اسما هي نصف أسامي حروف المعجم إن لم يعد فيها الألف حرفا برأسها في تسع وعشرين سورة بعددها إذا عد فيها الألف الأصلية مشتملة على أنصاف أنواعها ... ولعلها فرقت على السور ولم تعد بأجمعها في أول القرآن لهذه الفائدة مع ما فيه من إعادة التحدي وتكرير التنبيه والمبالغة فيه . والمعنى أن هذا المتحدى به مؤلف من جنس هذه الحروف أو المؤلف منها كذا وقيل هي أسماء للسور وعليه إطباق الأكثر سميت بها إشعارا بأنها كلمات معروفة التركيب فلو لم تكن وحيا من الله تعالى لم تتساقط مقدرتهم دون معارضتها واستدل عليه بأنها لو لم تكن مفهمة كان الخطاب بها كالخطاب بالمهمل والتكلم بالزنجي مع العربي ولم

يكن القرآن بأسره بيانا وهدى ولما أمكن التحدي به وإن كانت مفهمة فإما أن يراد بها السور هي مستهلها على أنها ألقابها أو غير ذلك والثاني باطل لأنه إما أن يكون المراد ما وضعت له في لغة العرب فظاهر أنه ليس كذلك أو غيره وهو باطل لأن القرآن نزل على لغتهم لقوله تعالى ^ بلسان عربي مبين ^ فلا يحمل على ما ليس في لغتهم .))[6]

و أما النص الثالث الذي يؤكد الإعجاز و التحدي فهو قوله تعالى : ((قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا))[7]، هذا و بالإضافة إلى قوله في نص رابع : ((قل فأتوا بسورة من مثله)).[8] و هي نصوص في مجملها يتفق بشأنها مفسرو القرآن الكريم بالمأثور و حتى من فسر بالرأي ممن رضي بقل و النقل بما ذهب إليه على أنها تدل على التحدي و الإعجاز . و الإعجاز اللغوي و البياني على رأس جميع أوجه الإعجاز بما في ذلك الرازي و النسفي و البغوي و الزمخشري و النيسابوري و الفراء فضلا عن الطبري و ابن كثير من القدماء و ابن عاشور و رشيد رضا و سيد قطب من المعاصرين على سبيل المثال لا الحصر .

إذن كان مثار المسألة هو الإعجاز اللغوي و البياني للنص القرآني الكريم . و يؤكد هذا قول الزركشي : ((و لما جاء به صلى الله عليه و سلم إليهم – و كانوا أفصح الفصحاء و مصاقع الخطباء – تحداهم على أن يأتوا بمثله ، و أمهلهم طول السنين فلم يقدروا))[9] إذن داهم في حدود ما برعوا فيه و برزت مقدرتهم فيه و هو الفصاحة و البلاغة و البيان الذي كانت تجمعها عندهم الخطابة و الشعر . مع العلم بأن لفظ الخطابة هنا بمعنى التكلم و المخاطبة أكثر مما يعني الخطابة كجنس أدبي و فن نثري مع عدم استبعاد هذا الفن من مشمول كلمة الخطابة ما دامت هي أيضا من أنواع المخاطبة التي تقتضي شحذ القريحة و تخير اللفظ و التفنن في الكلام .

الحق أن أي دارس لمسألة الإعجاز القرآني لا يغبط الإمام الباقلاني حقه ، على الرغم ن الذين ألفوا في الإعجاز كثر و منهم الرماني و الخطابي ، سواء بهذا الاسم أم باسم

نظم القرآن كما عند الجاحظ و السجستاني و البلخي و و ابن الإخشيد[10] فمن الزركشي و السيوطي إلى الرافعي في العصر الحديث كل متناول لمسألة الإعجاز إلا و أثرى على عمل الباقلاني ، فالرجل من خلال كتبه الثلاثة :" التمهيد "و " نكت الإنتصار لنقل القرآن الكريم " و " إعجاز القرآن " قد حاول أن يقدم لنا نظرية شاملة في الإعجاز القرآني و لاسيما أنه عقد مقارنة بين الشعر و القرآن في محاولة منه لإسقاط الشعر في أرقى صوره و هي معلقة امرئ القيس قفا نبك أمام القرآن الكريم .

إن الشيء الملفت للانتباه أن الباقلاني حين ينظر إلى إعجاز القرآن البياني و البلاغي يرى أن ((إعجاز القرآن في نظمه و بيانه منصب عنده على القرآن كله كوحدة ، و جملة لا تفصيلا ، كنص كامل له ميزاته و صفاته التي تميزه عن أقوال العرب و فنون كلامهم))[11]

و الحق أن القضية تتعلق بالنظم الذي أرسى قواعد نظريته الإمام عبد القاهر الجرجاني من خلال كتابيه أسرار البلاغة و دلائل الإعجاز فالرجل صاحب نظرية على درجة كبيرة من الدراسات النصية العربية سواء تعلق الأمر بالنص الأدبي البشري أم بالنص القرآني الشريف ، مع ما بين النصين من خلاف كبير و فارق عظيم حيث قدسية الثاني و مطلق إعجازه و رونق الأول و جماليته .

الجرجاني من الأولين و الرافعي من الآخرين كلاهما ورد عنده لفظ الإعجاز في عنواني كتابيهما ، الأول للجرجاني و هو " دلائل الإعجاز "[12] و الثاني للرافعي و هو " إعجاز القرآن للبلاغة النبوية "[13]

فهذا الأخير يتناول موضوع الإعجاز بقوله : ((و إنما الإعجاز شيئان : ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ، و و مزاولته على شدة الإنسان و اتصال عنايته ، ثم استمرار هذا الضعف مع تراخي الزمن و تقدمه ... و نحن قائلون فيما هو الإعجاز عند علمائنا رحمهم الله و ما وضعوه فيه من الكتب ،. ثم ما حقيقته عندنا ،. ثم نبسط الكلام فضلا من

البسط في إعجاز القرآن في أسلوبه و بيانه ما يماس اللغة و يتطرق إليها ...))[14] و هو حقيقة ما فعله فيما يأتي من صفحات تالية .

عبد القاهر الجرجاني نظرته خاصة في الإعجاز، ذلك أن الرجل يتساءل في آخر تقديم كتابه عن سر الإعجاز القرآني، وهو من منطلق إنكاره لفصاحة اللفظ باعتبار تلك الفصاحة صفة في اللفظ ذاته، وهو ثورة على مذهب البديعيين في المحسنات البديعية، و من منطلق تعليقه جودة الكلام بخصائص النظم وهو عنده التركيب المفيد. نراه بناء على هذه الآراء يبين فضل علم البيان في بداية الكتاب ويبين ما يهمنا هاهنا وهو أن هذا العلم هو الأداة لمعرفة الإعجاز، على ما بين الرجل وبين علماء البيان من خلاف في مسألة علم البيان هذا.[15]

خاتمة

هكذا إذن يتفق المتقدمون و المتأخرون على أن المعروف بالإعجاز القرآني يتعلق بالمادة التي أنزل بها القرآن الكريم و هي مادة اللغة بكل ما يتعلق بها من علوم أو بكل ما يمكن أن تسمو به من شرف و جمال و عبقرية و فنية و هي عندهم الفصاحة و البلاغة ، ثم جاء بعض المتأخرين ليثبتوا للقرآن إعجازا علميا آخر غير إعجاز اللغة من منطلق ما قررناه سابقا و هو أن القرآن كتاب هداية و كتاب علم بما في ذلك العلوم التطبيقية كالطب و الفلك و الحساب و غيرها من العلوم .

ولحق أنهم في هذا الميدان قد شفوا و أشفوا طبقا لما أتاح لهم العلم الحديث من وسائل ومن كشوف استطاعوا من خلالها التوصل إلى بعض حقائقه و عجائبه التي لا تنقضي.

ربما يتعلق الأمر عندهم بالبحث عن معاني أخرى للإعجاز غير ما أخبر به العلماء الأوائل من وجوه كما روينا عن الزركشي ، و لاسيما حين يتعلق الأمر بعلوم اللغة التي أخذت تفقد بعضا من مكانتها مع منجزات العلم التطبيقي الحديث أو على الأقل تراجعت بالقياس إلى بقية العلوم ، و ما يقال عن علوم اللغة يقال عن علوم أخرى إنسانية كالتاريخ و غيرها مما

أثبتنا من الصلة بينه و بين الإعجاز نقلا عن وجوه الإعجاز الستة الأولى التي ذكرها الزركشي و نبه إليها السيوطي في الإتقان .

الهوامش:

1. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر ، بيروت لبنان ، ط 03 ، 1980 ، ج 03 ، : 90 .
2. المرجع نفسه ، ص : 94 – 99 .
3. تفسير البغوي: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر– عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط 04 ، 1417 هـ – 1997 م ج 01، ص : 72
4. سورة هود الآية 13 ، 14 ، 15 .
5. البغوي : تفسير البغوي ، ج 04 ، ص : 165 .
6. البيضاوي : تفسير البيضاوي ، ج ؟ص ؟
7. سورة الإسراء ، الآية 88 .
8. سورة ؟ الآية ؟
9. – الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، ج 03 ، ص : 91 . ينظر في مسألة الإعجاز أيضا :جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، دار المعرفة ، بيروت لبنان ، د ط ، دت ، ج 02 ، ص : 148 .
10. أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني: إعجاز القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ،دار المعارف مصر ، ط 03 ، د ت ، ص : 09 ، 10 .
11. أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني: نكت الانتصار لنقل القرآن ، دراسة و تحقيق ، دكتور محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الاسكندرية مصر ، د ط ، دت ، ص : 11 .
12. عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز تعليق و شرح محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة القاهرة ، مصر ، ط 01 ، 1969 .
13. مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن و البلاغة النبوية ، مكتبة رحاب، الجزائر، دط، د ت .
14. المرجع نفسه ، ص 139 .
15. عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص : 13 .